آية الكرسي وبراهين التوحيد

بقلم:

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله العليِّ العظيم الكبير المتعال، ذي العظمة والكبرياء والجلال، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له المتفرِّد بصفات الكمال، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى الصَّحب والآل.

وبعد: فهذه رسالة مختصرة وكلمات وجيزة في بيان أعظم آية في كتاب الله عزَّ وجلَّ «آية الكرسي»، وإيضاح ما اشتملت عليه من البراهين العظيمة والدلائل الواضحة والحُجج الساطعة على تفرُّد الله عزَّ وجلَّ بالجلال والكمال والعظمة، وأنَّه سبحانه لا ربَّ سواه ولا معبود بحقٍّ إلَّا هو تبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره.

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[١].

فهذه الآية المباركة لها شأن عظيمٌ وقدرٌ رفيع؛ إذ هي أعظم آي القرآن شأناً، وأفضلها قدراً، وأرفعها مكانة، وليس في القرآن آية أعظمَ منها، فقد صحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ بأنَّها أفضل آية في كتاب الله.

روى مسلم في صحيحه عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يا أبا المنذر! أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر! أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾، قال: فضرب في صدري، وقال: والله! لِيَهنِك العلم أبا المنذر »[٢].

أي: هنيئاً لك هذا العلم الذي ساقه الله إليك ويسَّره لك

---

(١) البقرة، آية ٢٥٥.

(٢) صحيح مسلم (٨١٠).

ومنَّ عليك به، وأقسم ﷺ على ذلك بالله تعليةً لهذا الشأن وتفخيماً لهذا المرام.

ومن حُسن فقه أُبَيٍّ رضي الله عنه أنَّه لما سأله النبيُّ ﷺ هذا السؤال ذهب في بحثه إلى الآية التي أخلصت لبيان أعظم شيء في القرآن وهو التوحيد وتقرير دلائله وذكر عظمة الربِّ وكماله، وأنَّه المستحقُّ وحده للعبادة دون سواه، فهذا من كمال فقهه وحُسن فهمه، فلم يذكر آية في بيان الآداب الحميدة أو الأحكام الفرعية أو الأخبار السابقة أو أهوال يوم القيامة أو نحو ذلك، وإنَّما اختار آية التوحيد التي أخلصت لبيانه وأفردت لتقريره.

ولك أن تتأمَّل هنا لتدرك كمال هذا الفقه أنَّ أُبيًّا رضي الله عنه لم يختر هذه الآية من بين عشر آيات أو عشرين، أو مائة آية أو مائتين، وإنَّما اختارها من بين ما يزيد على الستة آلاف آية، كيف لا وهو رضي الله عنه «سيِّد القرَّاء ... جمع القرآن في حياة النبيِّ ﷺ وعرض على النَّبيِّ ﷺ وحفظ عنه علماً مباركاً، وكان رأساً في

العلم والعمل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»[(١)].

ومن مناقبه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأُبَي: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك، قال: آلله سمَّاني لك؟ قال: الله سمَّاك لي. قال: فجعل أُبَيٌّ يبكي».

ولك أيضاً أن تتأمَّل لتُدرك كمال فقهه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه لم تكن إجابته على هذا السؤال بعد مُهلة زمنية واسعة كأسبوع أو شهر ليُراجع الآيات ويتأمَّل في دلالاتها، وإنَّما أجاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في نفس الوقفة بعد أن أعاد عليه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السؤال، فاختار هذه الآيةَ المباركة.

وهي آية تحوي درساً مختصراً وتقريراً مفيداً وبياناً نافعاً للتوحيد بأنواعه الثلاثة، وجمعت من تقرير التوحيد وبيانه ما لم

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١/ ٣٩٠).

يأت مجتمعاً في آية أخرى غيرها، وإنَّما جاء مفرَّقاً في آيات، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ~: «فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سُلطانه وجلاله ومجده وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمِّنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العُلا»(١).

نعم! لقد كان نظرُ أُبَيٍ ﵁ في اختيار هذه الآية عميقاً ودقيقاً، وهو دالٌّ على عِظم شأن التوحيد في قلوب الصحابة، نظير هذا ما رواه البخاري عن عائشة <: أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث رجلاً على سريَّة وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال: سَلوه لأيِّ شيء يصنع ذلك، فسألوه فقال: لأنَّها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «أخبروه أنَّ الله يُحبُّه».

---

(١) تفسير السعدي (ص ١١٠).

فذكر هذا الصحابي أنَّ تكراره لقراءتها وسبب ملازمته لتلاوتها هو اشتمالها على صفة الرحمن، وهذا من دلائل كمال فقه الصحابة وعظم مكانة التوحيد في قلوبهم، قال شيخ الإسلام: «وهذا يقتضي أنَّ ما كان صفة لله من الآيات فإنَّه يستحب قراءته، والله يُحبُّ ذلك، ويُحبُّ من يُحبُّ ذلك»(١).

ولما كان مقام التوحيد أعظم المقامات كانت آياته أعظمَ الآيات، وُسوَرُه أفضلَ السُّوَر، وآيُ القرآن وسُوره متفاضلة باعتبار ألفاظه ومعانيه لا باعتبار مَن تكلَّم به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ~ : «قد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم؛ فإنَّه سبحانه واحد، ولكن باعتبار معانيه التي يتكلَّم بها، وباعتبار ألفاظه المبيِّنة لمعانيه، والذي قد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه فضَّل من السُّوَر سورةَ الفاتحة، وقال: «إنَّه لم ينزل في التوراة ولا في

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٧).

الإنجيل ولا في القرآن مثلها»[١] ... وفضَّل من الآيات آية الكرسي، وقال في الحديث الصحيح لأبي بن كعب: «أتدري أيّ آية في كتاب الله معك أعظم؟ قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فضرب بيده في صدره وقال: ليَهنك العلم أبا المنذر»، وليس في القرآن آية واحدة تضمَّنت ما تضمَّنته آية الكرسي، وإنَّما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة»[٢].

وقال ابن القيم: «ومعلومٌ أنَّ كلامه الذي يُثني به على نفسه ويذكر فيه أوصافه وتوحيده أفضل من كلامه الذي يذم به أعداءه ويذكر أوصافهم، ولهذا كانت سورة الإخلاص أفضلَ من سورة تبت، وكانت تعدل ثلث القرآن دونها، وكانت آية

---

(١) رواه الترمذي رقم: (٢٨٧٥).

(٢) جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أنَّ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، لابن تيمية (ص ١٣٣).

الكرسي أعظمَ آية في القرآن»[(١)].

ولعظم مقام آية الكرسي جاء في السنة الحثُّ على الإكثار من قراءتها، وجعلها وِرداً يوميًّا يُحافظ عليه المسلم، ويتكرَّر معه في يومه مرات عديدة:

١ ـ فجاء في السنة الترغيب في قراءتها أدبار الصلوات، روى النسائي من حديث أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي في دُبر كلِّ صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلَّا أن يموت»[(٢)].

قال ابن القيم: «بلغني عن شيخنا أبي العباس ابن تيمية قدَّس الله روحه أنَّه قال: ما تركتها عقيب كلِّ صلاة»[(٣)].

٢ ـ والترغيب في قراءتها عند النوم وأنَّ من قرأها إذا أوى

---

(١) شفاء العليل لابن القيم (٢/ ٧٤٤).

(٢) عمل اليوم والليلة رقم: (١٠٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٦٤٦٤).

(٣) زاد المعاد (١/ ٣٠٤).

إلى فراشه لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطانٌ حتى يُصبح، وهو في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «وَكَّلَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَالله لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَعل يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فأخذتُه فقلتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: دَعنِي فإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لا أعُودُ، فرحِمتُه فَخَلَّيْتُ سبيلَه، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لي رسول الله ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ الثالثة، فَجَعل يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ

تَزْعُمُ أَنَّكَ لاَ تعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! زَعَمَ أَنَّهُ يُعلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ» (١).

---

(١) صحيح البخاري رقم: (٢٣١١).

٣ـ والترغيب في قراءتها في أذكار الصباح والمساء، فعن أُبَي ابن كعب رضي الله عنه أنَّه كان له جُرن من تمر، فكان ينقص، فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم، فسلَّم عليه فردَّ عليه السلام، فقال: ما أنت؟ جنيٌّ أم إنسي؟ قال: جني، قال: فناولني يدك، فناوله يده، فإذا يدُه يد كلب، وشعره شعر كلب، قال: هذا خلق الجن، قال: قد علمت الجنُّ أنَّ ما فيهم رجلاً أشدّ منِّي، قال: فما جاء بك؟ قال: بلغني أنَّك تحبُّ الصدقة، فجئنا نُصيب من طعامك، قال: فما يُنجينا منكم؟ قال: هذه الآية التي في سورة البقرة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، مَن قالها حين يُمسي أُجير منَّا حتى يُصبح، ومَن قالها حين يُصبح أُجير منَّا حتى يُمسي، فلما أصبح أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال: صدق الخبيث» رواه النسائي والطبراني[(١)].

فقد دلَّ هذا النصُّ والذي قبله على قوة أثر هذه الآية في

---

(١) صححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٤١٨).

حفظ العبد، وطرد الشياطين وإبعادهم من المكان، والوقاية من كيدهم وشرورهم، وإذا قرئت على الأحوال الشيطانية أبطلتها كما قرَّر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع من كتبه.

قال في كتاب الفرقان: «وإذا قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا؛ فإنَّ التوحيد يطرد الشيطان»(١).

وقال: «إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها»(٢).

وقال في كتابه قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: «يقرأ آية الكرسي بصدق، فإذا قرأها تغيَّب ذلك أو ساخ في الأرض أو احتجب»(٣).

وقال ~: «فأهل الإخلاص والإيمان لا سلطان له عليهم ولهذا يهربون من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، ويهربون

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص ١٤٦).
(٢) الفرقان (ص ١٤٠).
(٣) قاعدة جليلة (ص ٢٨).

من آية الكرسي وآخر سورة البقرة وغير ذلك من قوارع القرآن، ومن الجنِّ من يخبر بأمور مستقبلة للكهان وغير الكهان مما يسرقونه من السمع، والكهانة كانت ظاهرة كثيرة بأرض العرب، فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين وبطلت أو قلَّت، ثم إنَّها تظهر في المواضع التي يختفي فيها أثر التوحيد»(١).

وقال أيضاً: «وهذه الأحوال الشيطانية تبطل أو تضعف إذا ذُكر الله وتوحيده وقرئت قوارع القرآن، لا سيما آية الكرسي، فإنَّها تبطل عامة هذه الخوارق الشيطانية»(٢).

والترغيب في الإكثار من قراءتها الوارد في السنة دليل على مسيس حاجة المسلم إليها وإلى ما تضمَّنته من التوحيد والتعظيم الذي لا يصمد أمامه باطل، بل يهدِّم أركانه ويُزلزِل بُنيانه ويفرِّق جمعه ويَقطع دابره ويمحو عينه وأثره.

وقد أفادت النصوص المتقدمة استحباب قراءة المسلم لهذه

---

(١) النبوات (١/ ٢٨٠).

(٢) النبوات (١/ ٢٨٣).

الآية ثمان مرات في كلِّ يوم وليلة؛ مرتين في الصباح والمساء، ومرة عند النوم، وخمس مرات أدبار الصلوات المكتوبة، وعندما يتيسَّر للمسلم هذا التكرار مع الاستحضار للمعاني والدلالات، والتفكر في المقاصد والغايات يعظم قدرُ التوحيد في قلبه وتستوثق عُراه في نفسه، وتقوى أواصره في فؤاده، فيكون مستمسكاً بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها كما هو مبيَّن في الآية التي تلي آية الكرسي.

فليس المطلوب القراءة دون استذكار المعاني، ولا التلاوة دون تدبر الدلالات، وإذا كان الله قد قال في عموم القرآن: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾(١)، فكيف الشأن إذاً في أعظم آياته وأفضلها على الإطلاق آيةِ الكرسي، فإن لم يكن هناك تدبُّر ضعُف الأثرُ وقلَّ الانتفاع، وقد مرَّ معنا قريباً قول شيخ الإسلام: «إذا قرأها بصدق» وتكرَّرت في كلامه، منبِّهاً بذلك إلى أنَّ القراءة المجرَّدة لا تَفي بالغرض ولا تحقق المقصود،

(١) النساء، آية ٨٢.

فشتَّان بين من يقرؤها بقلب لاه، ومن يقرؤها متفكِّراً في معانيها العظيمة ودلالاتها المباركة على التوحيد والتعظيم لله، فيمتلئ قلبُه توحيداً ويعمر فؤاده بالإيمان والتعظيم.

وفي هذه القراءة المتكرِّرة لآية الكرسي مع التدبُّر فائدة عظيمة مهمة كم غفل عنها كثيرٌ من الناس، ألا وهي أهميَّة استذكار التوحيد واستحضار أركانه، وتعميق أصوله في القلب وتوسيع مساحته فيه، خلافاً لمن يُهوِّن من أمر التوحيد ومدارسته، وأنَّه يكفي أن يتعلَّمه المرء في دقائق ولحظات دون الحاجة إلى الاستذكار المستمر ودوام المدارسة.

إنَّ هذه الآيةَ الكريمة المباركة متكوِّنةٌ من عشر جُمل، فيها من توحيد الله وتمجيده وتعظيمه وبيان تفرُّده بالكمال والجلال ما يُحقِّق لمن قرأها الحفظ والكفاية، وفيها من أسماء الله الحُسنى خمسة أسماء، وفيها من صفات الله ما يزيد على العشرين صفة، وقد بُدئت بذكر تفرُّد الله بالألوهية وبطلان ألوهية كلِّ من سواه، ثم ذكر حياة الله الكاملة التي لا يلحقها فناء، وذكر قيوميَّته سبحانه، أي: قيامه بنفسه وقيامه بتدبير أمور خلقه، وذكر تنزهه سبحانه عن صفات النقص كالسِّنة والنوم، وبيان

سعة ملكه سبحانه، وأنَّ جميع مَن في السموات والأرض عبيدٌ له داخلون تحت قهره وسلطانه، وذكر أنَّ من أدلة عظمته أنَّه لا يمكن لأحد من الخلق أن يشفع عنده سبحانه إلَّا من بعد إذنه، وفيها إثبات صفة العلم لله سبحانه، وأنَّ علمَه سبحانه محيطٌ بكلِّ معلوم، فهو يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وفيها بيان عظمة الله سبحانه بذكر عظمة مخلوقاته، فإذا كان الكرسي وهو مخلوق من مخلوقاته وسع السموات والأرض، فكيف بالخالق الجليل والربِّ العظيم، وفيها بيان كمال اقتداره سبحانه، وأنَّه سبحانه من كمال قدرته لا يؤوده، أي: لا يُثقله حفظ السموات والأرض، ثم ختمت الآية بذكر اسمين عظيمين لله، وهما: العليُّ العظيم، وفيهما إثبات علو الله سبحانه ذاتاً وقدراً وقهراً، وإثبات عظمته سبحانه بالإيمان بأنَّ له جميع معاني العظمة والجلال، وأنَّه لا يستحقُّ أحد التعظيم والتكبير والإجلال سواه.

هذا مجمل محتوياتها، فهي آية عظيمة فيها من المعاني الجليلة والدلالات العميقة والمعارف الإيمانية ما يدلُّ على عظمها وجلالة شأنها.

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي ~ في تفسيره: هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلُّها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنَّه ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعيَّن أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نِعمه، ولكون العبد مستحقًّا أن يكون عبداً لربه، ممتثلاً أوامرَه مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبَّراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلاَّن على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمُّناً ولزوماً، فالحي مَن له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه

وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتَّصف بها ربُّ العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرَّزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كلُّ ذلك داخل في قيُّومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنَّهما الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيُّوميته أنَّه ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ والسِّنَةُ النُّعاس ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبِّر وغيره مخلوق مرزوقٌ مدَبَّر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرَّة في السماوات ولا في الأرض فلهذا قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلُّها لله تعالى، ولكنَّه تعالى إذا أراد أن يَرحم مَن يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه مِن عباده أن يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن، ثم قال: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ أي: ما يستقبل منها، فعِلمُه تعالى محيطٌ بتفاصيل الأمور، متقدِّمها ومتأخِّرها، بالظواهر

والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العِلم مثقال ذرة إلَّا ما علَّمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ﴾ وهذا يدلُّ على كمال عظمتِه وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يَسَع السماوات والأرض على عظمتهما وعظمة مَن فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلَّا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحيَّر الأفكار وتكُلُّ الأبصار، وتقلقل الجبال وتكِّع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالِقِها ومُبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولاَ من غير تَعب ولا نصب، فلهذا قال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: يُثقله ﴿حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي تتضائل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة

العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكلِّ شيء»[(١)].

وفي تفسير ابن كثير ~ قال: «وهذه الآية مشتملة على جمل مستقلَّة ... »، ثم شرع في تفسيرها وبيان معانيها ومدلولاتها، فيحسن مطالعته ومطالعة غيره من كتب التفسير للتعرف على معاني هذه الآية المباركة ودلالاتها القويمة.

وفيما يلي وقفةٌ لبيان براهين التوحيد وشواهده العظيمة من خلال دلالات هذه الآية المباركة التي هي أعظم آي القرآن الكريم تقريراً له وذكراً لشواهده.

لقد صُدِّرت هذه الآية المباركة بكلمة التوحيد الخالدة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهي كلمة عظيمة بل هي أعظم الكلمات، قامت بها الأرض والسماوات، وخُلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله الرسلَ وأنزل الكتب، ولأجلها نُصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار،

---

(١) تفسير السعدي (ص ١١٠).

وبها انقسمت الخليقة إلى مؤمنين وكفار، وعليها نُصبت القبلة وأُسِّست المِلَّة، وهي حق الله على جميع العباد، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح الجنة دار السلام، وهي كلمة التقوى، والعروة الوثقى، وهي كلمة الإخلاص وشهادة الحقِّ، ودعوة الحقِّ، والبراءة من الشرك، وهي أعظم النِّعم وأجلُّ العطايا والمنن.

قال سفيان بن عيينة: «ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرَّفهم لا إله إلَّا الله»[(١)].

وعنها يُسأل الأولون والآخرون يوم القيامة، فلا تزول قدَمَا عبد بين يدي الله حتى يُسأل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتُم المرسلين؟

فجواب الأولى بتحقيق كلمة التوحيد لا إله إلَّا الله علماً وإقراراً وعملاً.

وجواب الثانية بتحقيق شهادة أنَّ محمداً رسول الله علماً

---

(١) ذكره ابن رجب في كلمة الإخلاص (ص ٥٣).

وإقراراً وانقياداً وطاعة.

وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدِّين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون، بل لها من الفضائل والمزايا ما لا يخطر ببال ولا يدور في خيال، لكن ينبغي للمسلم أن يعلم هنا أمراً عظيماً ومقاماً جسيماً، هو لبُّ هذا الأمر وأساسه، ألا وهو أنَّ لهذه الكلمة مدلولاً لا بدَّ من فهمه، ومعنىً لا بدّ من ضبطه، إذ غيرُ نافع بإجماع أهل العلم النطقُ بهذه الكلمة من غير فهم لمعناها، ولا عمل بما تقتضيه، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١)، ومعنى الآية كما قال أهل التفسير أي: إلَّا من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما نطقوا به بألسنتهم، إذ إنَّ الشهادة تقتضي العلم بالمشهود به، فلو كانت عن جهل لم تكن شهادة، وتقتضي الصدق، وتقتضي العمل

(١) الزخرف، آية ٨٦.

بذلك، وبهذا يتبيّن أنَّه لا بدّ في هذه الكلمة من العلم بها مع العمل والصدق، فبالعلم ينجو العبد من طريقة النصارى الذين يعملون بلا علم، وبالعمل ينجو من طريق اليهود الذين يعلمون ولا يعملون، وبالصدق ينجو من طريقة المنافقين الذين يُظهرون ما لا يُبطنون، ويكون بذلك من أهل صراط الله المستقيم، من الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

والحاصل أنَّ لا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً، واعتقد ذلك وعمل به، أما من قالها وعمل بها ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وأما من قالها وعمل بضدّها وخلافها من الشرك فهو الكافر، وكذلك من قالها وارتدّ عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنَّها لا تنفعه ولو قالها ألف مرّة، وكذلك من قالها وهو يصرف أنواعاً من العبادة لغير الله كالدعاء، والذبح، والنذر، والاستغاثة، والتوكل، والإنابة، والرجاء، والخوف والمحبة، ونحو ذلك، فمَن صرفَ شيئاً مما لا يصلحُ إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك بالله

العظيم ولو نطق بلا إله إلا الله؛ إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص الذي هو معنى ومدلول هذه الكلمة العظيمة[(١)].

فإنَّ لا إله إلا الله معناها: لا معبود حق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له، والإله في اللغة هو المعبود، ولا إله إلا الله: أي لا معبود حق إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[(٢)] مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[(٣)]، فتبيّن بذلك أنَّ معنى الإله هو المعبود، وأنَّ لا إله إلا الله معناها إخلاص العبادة لله وحده واجتناب عبادة الطاغوت، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش: قولوا: لا إله إلا الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص:٧٨).
(٢) الأنبياء، آية ٢٥.
(٣) النحل، آية ٣٦.

إِنَّ هَـٰذَا لَشَىۡءٌ عُجَابٌ﴾[١]، وقال قومُ هودٍ لنبيّهم لما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ﴾[٢]، قالوا ذلك وهو إنَّما دعاهم إلى لا إله إلا الله؛ لأنَّهم فهموا أنَّ المراد بها نفي الألوهية عن كلِّ من سوى الله وإثباتُها لله وحده لا شريك له، فـ لا إله إلا الله اشتملت على نفي وإثبات، فنفت الإلهية عن كلِّ ما سوى الله تعالى، فكلُّ ما سوى الله من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فليس بإله، وليس له من العبادة شيء، وأثبتت الإلهية لله وحده، بمعنى أنَّ العبد لا يأْلَهُ غيرَه، أي لا يقصده بشيء من التألّه، وهو تعلّق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

وقد جاء في القرآن الكريم نصوصٌ كثيرةٌ تُبيّنُ معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وتوضح المراد بها، ومن ذلك قول

---

(١) ص، آية ٥.

(٢) الأعراف، آية ٧٠.

الله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[(٣)]، وقال تعالى حكاية عن مؤمن يس: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ

---

(١) البقرة، آية ١٦٣.

(٢) البينة، آية ٥.

(٣) الزخرف، آية ٢٦ ـ ٢٨.

(٤) يس، آية ٢٢ ـ ٢٤.

دِينِى﴾[١]، وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا، وهي تُبيِّن أنَّ معنى لا إله إلَّا الله هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفرادُ الله وحده بالعبادة، فهذا هو الهدى ودين الحق الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، أما قول الإنسان لا إله إلَّا الله من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، بل لربما جعل لغير الله حظاً ونصيباً من عبادته من الدعاء والخوف والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادات فإنَّ هذا لا يكفي العبدَ لأن يكون من أهل لا إله إلا الله، ولا

(١) الزمر، آية ١١ ـ ١٤.
(٢) غافر، آية ٤١ ـ ٤٣.

ينجيه يوم القيامة من عذاب الله[(١)].

فليست لا إله إلا الله اسماً لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له، أو لفظاً لا مضمون له، كما قد يظنّه بعض الظانين، الذين يعتقدون أنَّ غاية التحقيق في ذلك هو النطق بهذه الكلمة من غير اعتقاد في القلب بشيء من المعاني، أو التلفظ بها من غير إقامة لشيء من الأصول والمباني، وهذا قطعاً ليس هو شأن هذه الكلمة العظيمة، بل هي اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني، وحاصله كما تقدّم البراءةُ من عبادة كلِّ ما سوى الله، والإقبال على الله وحده خضوعاً وتذلّلاً، وطمعاً ورغباً، وإنابةً وتوكّلاً، ودعاءً وطلباً، فصاحب لا إله إلا الله لا يَسأل إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يتوكّل إلا على الله، ولا يرجو غير الله، ولا يذبح إلا لله، ولا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله، ويكفر بجميع ما يُعبد من دون الله، ويبرأ إلى الله من ذلك.

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص: ١٤٠).

هذا، وقد أقيم في آية الكرسي البراهين الساطعات والدلالات الواضحات على هذا التوحيد، وأنَّ المستحقَّ للعبادة وحده دون سواه هو الله الواحد القهار، وقد جاء ذكر هذه البراهين في هذه الآية مجيئاً متناسقاً برهاناً يتلوه برهان، وحجة يتبعها حجة، إلى أن تمَّ عقد مبارك ونظم فريد لبراهين التوحيد.

وإليك بيان هذه البراهين بشي من الاختصار:

البرهان الأول: ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ وهذا برهان واضح على وجوب إفراد الله وحده بالعبادة، كونه سبحانه موصوفاً بأنَّه حيٌّ لا يموت حياة كاملة ليست مسبوقة بعدم ولا يلحقها زوال وفناء، ولا يعتريها نقص وعيبٌ جلَّ ربُّنا وتقدَّس وهي حياة تستلزم كمال صفاته سبحانه، فهذا الذي يستحقُّ أن يُعبد ويُركع له ويُسجد، كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[1]، أما الحي الذي يموت أو الميت الذي ليس هو بحي أو الجماد الذي ليس له حياة أصلاً فكلُّ هؤلاء لا يستحقُّون من

(١) الفرقان، آية ٥٨.

العبادة شيئاً؛ إذ العبادة حقٌّ للحيِّ الذي لا يموت.

البرهان الثاني: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ أي القائم بنفسه المقيم لخلقه، وإلى هذا الاسم ترجع جميع صفات الأفعال، وهو يدلُّنا على كمال غنى الربِّ سبحانه، فهو القائم بنفسه الغنيُّ عن خلقه كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1]، وفي الحديث القدسي: «إنَّكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضُرِّي فتضرُّوني»، وغناه سبحانه عن خلقه غنى ذاتي لا يحتاج إليهم في شيء، غنيٌّ عنهم من كلِّ وجه.

ويدلُّنا أيضاً على كمال قدرته وتدبيره لهذه المخلوقات، فهو المقيم لها بقدرته سبحانه، وجميع المخلوقات فقيرة إليه لا غنى لها عنه طرفة عين، والعرش والكرسي والسماوات والأرض والجبال والأشجار والناس والحيوان كلُّها فقيرة إلى الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ

(١) فاطر، آية ١٥.

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ﴾[٤]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، فهو سبحانه المتصرِّف في جميع المخلوقات المدبِّر لكلِّ الكائنات.

وبهذا يُعلم أنَّ جميع صفات الله الفعلية كالخلق والرَّزق والإنعام والإحياء والإماتة وغير ذلك راجعةٌ إلى هذا الاسم؛ لأنَّ من دلالاته أنَّه المقيم لخلقه خلقاً ورزقاً وإحياءً وإماتة وتدبيراً، كما أنَّ صفاته الذاتية كالسمع والبصر واليد والعلم

---

(١) الرعد، آية ٣٣.

(٢) فاطر، آية ٤١.

(٣) فاطر، آية ١٥.

(٤) الروم، آية ٢٥.

ونحوها راجعة إلى اسمه الحي، فرجعت الأسماء الحُسنى كلُّها إلى هذين الاسمين، وقد ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّهما اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى، ولعظم شأن هذين الاسمين ذُكرا في أول دلائل التوحيد وبراهينه.

أي: فمَن كان هذا شأنه حيٌّ لا يموت، قيُّوم يُدبِّر شأن الخليقة لا يعجزه شيء، ولا قيام لشيء إلَّا بأمره فهو الذي يستحقُّ أن تُصرف له العبادة وحده دون سواه، وأنَّ عبادة كلِّ مَن سواه باطلةٌ؛ لأنَّ مَن سواه إمَّا جمادٌ لا حياة له أصلاً، أو حيٌّ قد مات، أو حيٌّ يموت، وليس لأيِّ مخلوق شيء من التدبير والتصرُّف في هذا الكون بل الملك والتصرف كلُّه لله الواحد القاهر.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن

(١) فاطر، آية ١٣.

دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلاً ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لأنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾[٢]، فكيف تُصرف العبادة لهؤلاء العاجزين.

البرهان الثالث: ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوۡمٌۚ ﴾ والسِّنَة هي أول النوم وبداياته وهو النعاس الخفيف، والنوم معروف، والله جلَّ وعلا منزَّهٌ عنهما لكمال حياته وكمال قيوميته، وأمَّا الإنسان وغيره من المخلوقات فهو حيٌّ يموت، ويتخلَّل حياته أوقاتٌ للراحة؛ لأنَّه يتعب وينصب، والنوم مبنيٌّ على التعب والإرهاق، فالإنسان إذا كان متعباً ونام حصل له بنومه الراحة والسكون، فهو محتاجٌ إلى النوم لضعفه ونقصه واحتياجه، فهو ينام وينعس ويتعب وينصب ويسقم، فكيف يُعبد من هذا

---

(١) الإسراء، آية ٥٦.

(٢) الفرقان، آية ٣.

شأنه؟ وكيف تُصرف له العبادة؟

ومن القواعد المفيدة هنا أنَّ كلَّ نفي في القرآن فهو متضمن ثبوت كمال ضد المنفي لله عزَّ وجلَّ، فهنا نفيت عنه سبحانه السِّنة والنوم لكمال حياته وقيوميته وقوَّته وقدرته، وكلُّ هذا من براهين وجوب توحيده وإفراده وحده بالعبادة، وفي الحديث: «إنَّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابُه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١] تبارك وتعالى.

البرهان الرابع: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك سبحانه لما في السموات وما في الأرض، وما سواه لا يملك في السموات ولا في الأرض ولا مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ

(١) رواه مسلم رقم: (١٧٩).

وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾[١]، أي: لا يملك مثقال ذرَّة استقلالاً ولا يملكها كذلك على وجه المشاركة، ولا يملك الإنسان في هذه الحياة شيئاً إلَّا بتمليك الله له، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[٢]، ثم إنَّ كلَّ ما يملكه الإنسانُ في هذه الحياة مآله إلى أحد أمرين، إمَّا أن يُفارقه صاحبُه بالموت، أو أن يفارق هو صاحبه بآفة أو جائحة أو نحو ذلك كأصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنَّها مصبحين ولا يستثنون، فطاف عليها طائفٌ من الله في تلك الليلة فأصبحت كالصريم، ففي المساء كانوا يملكون حديقة غناء وأصبحوا لا يملكون شيئاً، وكلُّ ما يملكه العبدُ فهو من الله فهو سبحانه المعطي المانع القابض الباسط الخافض الرافع المُعز المذل، والأمر أمرُه والملك ملكُه.

---

(١) سبأ، آية ٢٢.

(٢) آل عمران، آية ٢٦.

فهو وحده المستحقُّ للعبادة؛ إذ هو المالك الذي بيده العطاء والمنع والخفض والرفع، وما سواه لا يستحق من العبادة شيئاً، بل هو مخلوق طوع يد مالكه وتحت تصرف خالقه.

ومن لا يملك في هذا الكون ولا مثقال ذرة ملكاً استقلاليًّا لا يجوز أن يصرف له شيء من العبادة؛ إذ العبادة حقٌّ للملك العظيم والخالق الجليل والرب المدبِّر لهذا الكون لا شريك له.

البرهان الخامس: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده إلَّا بإذنه؛ لأنَّه هو الملك ومن الذي يتصرَّف في ملكه أو يفعل شيئاً بدون إذنه.

والشفاعة ملك لله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ ﴾[1]، فلا تُطلب إلَّا بإذنه ولا تُنال إلَّا بمنِّه، ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ ﴾[2]، ﴿ وَكَم مِّن

---

(١) الزمر، آية ٤٤.

(٢) سبأ، آية ٢٣.

مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[1]، ونبيُّنا ﷺ في مقامه المحمود يوم القيامة مقام الشفاعة لا يكون ذلك منه إلَّا بعد الإذن الإلهي «ارفع رأسك وقل يُسمع واشفع تشفَّع».

ثم إنَّ شفاعة الشافعين عند الله ليست طائلة كلَّ أحد ولا نائلة كلَّ إنسان، بل هي خاصة لأهل الإخلاص والتوحيد ولا حظَّ فيها لمشرك، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: قلت: يا رسول الله! مَن أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلَّا الله خالصاً من قلبه».

قال ابن القيم ~ : «وفي قوله في حديث أبي هريرة: «أسعدُ

---

(١) النجم، آية ٢٦.

الناس بشفاعتي من قال لا إله إلَّا الله»سرٌّ من أسرار التوحيد، وهو أنَّ الشفاعة إنَّما تُنال بتجريد التوحيد، فمَن كان أكمل توحيداً كان أحرى بالشفاعة، لا أنَّها تُنال بالشرك بالشفيع كما عليه المشركون»[١].

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجَّل كلُّ نبيٍّ دعوتَه، وإنِّي اختبأت دعوتي شفاعة لأمَّتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمَّتي لا يُشرك بالله شيئاً».

وفي هذا البرهان إبطال لعقيدة المشركين القائمة على صرف حقِّ الله لغيره، زاعمين أنَّ هؤلاء شفعاء ووُسطاء يُقرِّبونهم إلى الله زلفى، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[٢]،

---

(١) تهذيب السنن (٧/ ١٣٤).

(٢) يونس، آية ١٨.

وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[١]، ورتَّبوا على ذلك صرف العبادات للأموات والأحجار والأشجار وغيرها، ودعاؤهم إياهم والذبح لهم والنذر، وسؤالهم قضاء الحاجات ودفع الملمَّات وكشف الكربات، معتقدين أنَّهم يسمعون نداءهم ويُجيبون دعاءهم ويعطونهم سؤلهم، وكلُّ هذا شرك وضلال يمارسونه في القديم والحديث تحت مسمَّى الشفاعة.

وثمَّة فصول ثلاثة في الشفاعة جهلها أهل الضلال أو تجاهلوها ألا وهي: أنَّه لا شفاعة إلَّا بإذن الله، ولا شفاعة إلَّا لمن رضي اللهُ قولَه وعملَه، والله سبحانه لا يرضى إلَّا عن أهل التوحيد.

البرهان السادس: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي: أحاط علمُه بالأمور الماضية والأمور المستقبلة، فيعلم ما كان وما سيكون، أحاط بكلِّ شيء علماً، وأحصى كلَّ شيء

---

(١) الزمر، آية ٣.

عدداً، وكيف لا يكون علمُه محيطاً بالمخلوقات وهو خالقها ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1]، فخلقُه لهذه المخلوقات وإيجاده لها دليلٌ على إحاطة علمه بها، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾[2].

«قيل: إنَّ بعضَ الملحدة قال يوماً: أنا أخلق، فقيل له: فأرنا خلقك؟ فأخذ لحماً فشرحه، ثم جعل بينه روثاً ثم جعله في كوز وختمه ودفعه إلى مَن حفظه عنده ثلاث أيام، ثم جاء به إليه فكسر الخاتم، وإذا الكوز ملآن دوداً، فقال: هذا خلقي، فقال له بعض مَن حضر: فكم عددُه؟ فلَم يدر، فقال: فكم منه ذكور وكم منه إناث؟ وهل تقوم برزقه؟ فلم يأت بشيء، فقال له:

---

(١) الملك، آية ١٤.

(٢) الطلاق، آية ١٢.

الخالق الذي أحصى كلَّ ما خلق عدداً، وعرف الذَّكر والأنثى ورزق ما خلق، وعلم مدَّة بقائها وعلم نفاد عمره»[(١)] فبهت الملحد.

وأذكرُ أنَّني أوردتُ هذه الفائدة لأحد الطُّلاَّب من الجمهوريات الإسلامية، فاندهش حينما سمع الجواب وقال: كيف غابت عنَّا هذه الحجة العظيمة، وذكر أنَّ الشيوعيين كانوا يُلقون عليهم هذه الشبهة في الفصول الدراسية ولا سيما في المراحل الابتدائية ويحصل تشويش على الطلاب من أبناء المسلمين، وقال: أنا ممن فُعل أمامي هذا، وأخذ يُفخِّم هذا الجواب ويُعظم من شأنه.

---

(١) الحجة في بيان المحجة للتيمي (١/ ١٣٠).
وذكر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق (ص ٢٧٩) من مقالات الحمارية من القدرية أنَّهم «زعموا أنَّ الإنسان يخلق أنواعاً من الحيوانات كاللحم إذا دفنه الإنسان أو يضعه في الشمس فيُدوِّد، زعموا أنَّ تلك الديدان من خلق الإنسان». تعالى الله عمَّا يشركون.

وعلى كلٍّ فالله جلَّ وعلا من براهين وجوب توحيده وإخلاص الدين له كونه سبحانه أحاط علماً بالمخلوقات ووسع علمه جميع البريَّات ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾[1]، ولهذا قال تعالى في إبطال عقائد المشركين: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[2].

البرهان السابع والثامن: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ ﴾ وهذا فيه عجز المخلوق وقصور علمه ومحدوديَّته، وأنَّه لم يؤت من العلم إلَّا القليل، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[3]، وهو أولاً خرج من بطن أمِّه لا يعلم شيئاً

(١) سبأ، آية ٣.

(٢) الرعد، آية ٣٣.

(٣) الإسراء، آية ٨٥.

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾[(١)] وآيلٌ علمه إلى الضعف والاضمحلال ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ ﴾[(٢)] وهو في أثناء ذلك يعتريه يعتريه القصور والنسيان ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾[(٣)]، وفي الحديث: «نسي آدم ونسيت ذريَّته».

وما عنده من علم إنَّما ناله بتعليم الله له ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ ﴾[(٤)]، ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[(٥)]، ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾[(٦)]، وفي الدعاء المأثور: «اللَّهمَّ علِّمني ما ينفعني» فلا ينال

---

(١) النحل، آية ٧٨.

(٢) النحل، آية ٧٠.

(٣) طه، آية ١١٥.

(٤) البقرة، آية ٣٢.

(٥) العلق، آية ٤ ، ٥.

(٦) الرحمن، آية ٣ ، ٤.

العبد أيّ حظٍّ من العلم إلَّا إذا وفَّقه الله إليه ويسَّره له.

وفي قوله: ﴿ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ برهانٌ آخر على التوحيد، فالأمور كلُّها بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، قال الشافعي ~:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت وفي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننتَ وهذا خذلت وهذا أعنتَ وذا لم تُعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حسن(١)

البرهان التاسع: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الكرسيُّ مخلوقٌ عظيم من مخلوقات الله عزَّ وجلَّ ، وصفه الله سبحانه بأنَّه وسع السموات والأرض لسعته وعظم خلقه وكبر مساحته، ونسبة السموات والأرض إليه تُعدُّ نسبة ضئيلة

---

(١) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد رقم (١٣٠٤).

جدًّا، كما أنَّ نسبته إلى العرش تُعدُّ نسبة ضئيلة، يوضح ذلك حديثُ أبي ذرٍّ ﷺ قال: دخلتُ المسجد الحرام فرأيتُ رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه فقلت: يا رسول الله! أيُّما آية نزلت عليك أفضل؟. قال: «آية الكرسي؛ ما السموات والأرض في الكرسي إلَّا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضلُ العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»(١)، وقد خرج الحديثُ مخرجَ التفسير والبيان لهذه الآية ليتأمَّل العبد في عظمة هذا المخلوق مقارنة بينه وبين السموات والأرض، ثم ضآلته في المقارنة بينه وبين العرش المجيد، وتأمَّل هنا ماذا تساوي الحلقة الصغيرة الملقاة في الفلاة إلى الفلاة نفسها، فالكرسي نسبته إلى العرش كنسبة الحلقة إلى الفلاة، والسموات والأرض نسبتها

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٤٨ ـ ٦٤٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١) وغيرهم، وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم: (١٠٩) بمجموع طرقه.

إلى الكرسي مثل ذلك، وإذا تفكَّرت في الأرض التي تمشي عليها بالجبال المحيطة بها، ماذا تساوي بالنسبة لعموم الأرض، ثم ماذا تساوي بالنسبة لكلِّ الأرضين، ثم ماذا تساوي بالنسبة للسموات، ثم ماذا تساوي بالنسبة للكرسي الذي وسع السموات والأرض، ثم ماذا تساوي بالنسبة إلى العرش العظيم، لتُدرك ضحالة المحيط الذي تعيش فيه، ولتُدرك بهذا التفكر عظمة مخلوقات الله جلَّ وعلا الدالة على عظمة خالقها ومُبدعها، وفي الحديث: «تفكَّروا في آلاء الله ولا تفكَّروا في الله»[1]، وهو تفكُّرٌ مُبارك يهدي العبد إلى عظمة المُبدع وكمال

---

(١) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٣/ ٥٢٥) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٢١٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جدًّا، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة وعبد الله بن سلام وأبي ذر وابن عباس، وقد حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (١٧٨٨) بمجموع طرقه.

الخالق، وأنَّه سبحانه وتعالى الكبير المتعال العليُّ العظيم، ولهذا قال بعض أهل العلم: إنَّ ذكر الكرسي هنا جاء في مقام التوطئة والتمهيد لبيان علوِّ الله وعظمته، وهو ما جاء في خاتمة هذه الآية.

وإذا أدرك المسلم هذه العظمة ذلَّ لربِّه وانكسر بين يديه وصرف له أنواعَ العبادة، واعتقد أنَّه المستحقُّ لها دون سواه، وعرف أنَّ كلَّ مشرك لم يقدر ربَّه العظيم حقَّ قدره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ

---

(١) الزمر، آية ٦٧.

إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[١]، وأين ذهبت عقولُ هؤلاء المشركين حين صرفوا ذُلَّهم وخضوعَهم وانكسارهم ورجاءهم وخوفهم ورغبهم ورهبهم وحبَّهم وطمعهم إلى مخلوقات ضئيلة وكائنات ذليلة لا تملك شيئاً من النفع والضر لنفسها فضلاً عن أن تملكه لغيرها، وتركوا الخضوع والذلَّ للربِّ العظيم والخالق الجليل تعالى الله عمَّا يصفون وسبحان الله عمَّا يُشركون.

البرهان العاشر: ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ ﴾ وهذا أيضاً بيان لعظمة الله وكمال قدرته وقوَّته، وقد عرفنا أنَّ النَّفيَ في القرآن لا يكون نفياً صرفاً، وإنَّما هو نفيٌ متضمِّنٌ ثبوت كمال ضد المنفي، فقوله: ﴿ لَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ أي: لا يُكرثه ولا يُثقله ولا يُتعبه ﴿ حِفْظُهُمَا ۚ ﴾ أي السموات والأرض، وفي هذا إثبات كمال قوته وقُدرته، وأنه سبحانه الحفيظ يحفظ السموات والأرض،

(١) نوح، الآيات ١٣ ـ ٢٠.

كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾[1]، وقال: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ﴾[2]، وفيه أيضاً إثبات افتقار جميع المخلوقات إليه؛ فقرارها بإذنه وحفظها بمشيئته، وهو الممسك لها بقدرته، فهي فقيرة إليه من كلِّ وجه، لا غنى لها عن حفظه، وهذا برهان جليٌّ على وجوب توحيده وإخلاص الدين له والبراءة من اتخاذ الشركاء والأنداد، وكيف يتخذ المخلوق الضعيف والعبد الذليل ندًّا لربِّه وخالقه، وكيف يتخذ المحفوظ ندًّا للحافظ، وكيف يتخذ الفقير الذليل من كلِّ وجه ندًّا للغني الحميد، تعالى الله عمَّا يُشركون.

قال ابن القيم ~ : «وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف

---

(١) فاطر، آية ٤١.

(٢) الروم، آية ٢٥.

يُسوى التراب بربِّ الأرباب؟ وكيف يُسوَّى العبيد بمالك الرِّقاب؟ وكيف يُسوى الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته إلَّا العدم، بالغني بالذات القادر بالذات الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته، فأيُّ ظلم أقبح من هذا؟ وأيُّ حكم أشدُّ جَوراً منه؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه كما قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[1]، فعَدَل المشركُ مَن خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرَّة في السموات ولا في الأرض، فيا لك من عدل تضمَّن أكبرَ الظلم وأقبحه»[2].

---

(١) الأنعام، آية ١.

(٢) الجواب الكافي (ص ١٥٦).

البرهان الحادي عشر والثاني عشر: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وهذان برهانان من براهين التوحيد، وأنَّه سبحانه المستحقُّ للعبادة دون سواه، بذكر علوِّ الله على جميع المخلوقات، وكمال عظمته سبحانه.

و﴿ٱلۡ﴾ في قوله ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ للاستغراق، فهو شامل لكلِّ معاني العلو؛ علو الذات وعلو القهر وعلو القدر.

وله العلو من الوجوه جميعها ذاتاً وقهراً مع علو الشان.

فهو سبحانه العليُّ بذاته فوق مخلوقاته، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾(١)، وهو العلي بقهره كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾(٢)، وهو العلي بقدره كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾(٣).

---

(١) طه، آية ٥.

(٢) الأنعام، آية ١٨.

(٣) الزمر، آية ٦٧.

وهذا برهان عظيم من براهين التوحيد وبطلان الشِّرك، ولذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾(١).

وقوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه إثبات عظمته، وأنَّه لا شيء أعظم منه، وأنَّ المخلوق مهما عظُم شأنه فهو أحقرُ أن تُقارَن عظمته بعظمة مَن خلقه وأوجده.

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمَن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»(٢).

ومن العبوديات المتعلقة بهذا الاسم أن يُعظِّم العبدُ ربَّه وأن يذلَّ بين يديه وأن ينكسرَ لجنابه العظيم، وأن يفرده بالخضوع والخشوع والانكسار، وقد مكر الشيطان بأقوام فقلبوا هذه الحقيقة ووقعوا في الشرك الصراح وأخرجوه مخرج

(١) الحج، آية ٦٢.
(٢) رواه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة رقم: (٥٤٠).

التعظيم لله، وقالوا: إنَّ الله أعظم وأجَلُّ من أن يُتقرَّب إليه بغير وسائط وشفعاء وآلهة تقرب إليه، وكلُّ مبطل لا يتمكَّن من ترويج باطله إلَّا بإخراجه في قالب الحق.

قال عبد الرحمن بن مهدي ~ وذُكر عنده أنَّ الجهمية ينفون أحاديث الصفات ويقولون: الله أعظم من أن يُوصَف بشيء من هذا فقال: «قد هلك قومٌ من جهة التعظيم فقالوا: الله أعظم من أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولاً، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾، ثم قال: هل هلكت المجوس إلَّا من جهة التعظيم؟ قالوا: الله أعظمُ من أن نعبده، ولكن نعبد من هو أقرب إليه منَّا فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]»[2].

---

(١) الزمر، آية ٣.

(٢) أورده التيمي في الحجة (١/ ٤٤٠).

وهذا ظنٌّ منهم فاسد بربِّ العالمين أرداهم وأوقعهم في الإشراك بالله واتخاذ الأنداد، وجعلوا الوسطاء والشفعاء، زاعمين بذلك أنَّهم يُعظِّمون ربَّ العالمين، ولو أحسنوا بربِّهم الظنَّ لوحَّدوه حقَّ توحيده.

قال ابن القيم ~ : «إذا تبيَّن هذا فههنا أصلٌ عظيم يكشف سرَّ المسألة، وهو أنَّ أعظم الذنوب عند الله إساءة الظنِّ به، فإنَّ المسيء به الظن قد ظنَّ به خلاف كماله المقدَّس، وظنَّ به ما يناقض أسماءَه وصفاته، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظنَّ السوء بما لم يتوعَّد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[1]، وقال تعالى لمن أنكر صفةً من صفاته: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2]، وقال

---

(١) الفتح، آية ٦.

(٢) فصلت، آية ٢٣.

تعالى عن خليله إبراهيم أنَّه قال لقومه: ﴿ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١) أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنَّه بكلِّ شيء عليم، وهو على كلِّ شيء قدير، وأنَّه غني عن كلِّ ما سواه، وكلُّ ما سواه فقير إليه، وأنَّه بالقسط على خلقه، وأنَّه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالِم بتفاصيل الأمور، فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده، فلا يحتاج إلى مُعين، والرحمن بذاته، فلا يحتاج في رحمته إلى مَن يستعطفه، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء، فإنَّهم يحتاجون إلى من يعرِّفهم أحوال الرعية وحوائجهم، ويُعينهم على قضاء حوائجهم، وإلى مَن يسترحمهم ويستعطفُهم

---

(١) الصافات، الآيات ٨٥ ـ ٨٧.

بالشفاعة، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم، فأمَّا القادر على كلِّ شيء، الغنيُّ بذاته عن كلِّ شيء، العالم بكلِّ شيء، الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقُّص بحقِّ ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظنٌّ به ظنَّ السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقرٌّ في العقول السليمة فوق كلِّ قبيح.

ويوضح هذا: أنَّ العابدَ معظِّمٌ لمعبوده، متألِّه له، خاضع ذليل له، والرَّبُّ تعالى وحده هو الذي يستحقُّ كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذلِّ، وهذا خالصُ حقِّه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقُّه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولا سيما إذا كان الذي جعل شريكه في حقِّه هو عبده ومملوكه، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ

أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1]، أي إذا كان أحدُكم يأْنَف أن يكون مملوكُه شريكَه في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصحُّ لسواي؟

فمَن زعم ذلك فما قدرني حقَّ قدري، ولا عظَّمني حقَّ تعظيمي، ولا أفردني بما أنا منفردٌ به وحدي دون خلقي، فما قدر الله حقَّ قدْرِه من عبَدَ معه غيري، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2]، فما قدر اللهَ حقَّ قدره مَن عبد

(١) الروم، آية ٢٨.

(٢) الحج، الآيتان ٧٣ ـ ٧٤.

معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره، وإن سلبه الذبابُ شيئاً مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه، وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]، فما قدر مَن هذا شأنه وعظمته حقَّ قدره مَن أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجزُ شيء وأضعفه، فما قدر القويَّ العزيزَ حقَّ قدره من أشرك معه الضعيف الذليل »[2].

فهذه اثنا عشر برهاناً من براهين التوحيد اشتملت هذه الآية الكريمة على تقريرها وإيضاح أنَّ الله عزَّ وجلَّ وحده المتفرِّد بالألوهية المستحق للعبادة، وأن لا إله إلَّا الله، ولا معبود بحقٍّ سواه، وجدير بالمسلم أن يقفَ مع هذه الآية الكريمة في

---

(١) الزمر، آية ٦٧.

(٢) الجواب الكافي (ص ١٦٢ ـ ١٦٤).

لياليه وأيامه مرات وكرَّات متفكِّراً متأمِّلاً متدبِّراً، محقِّقاً ما دلَّت عليه من الإخلاص والتوحيد، بريئاً من الإشراك بالله والتنديد، مثبتاً لربِّه أسماءَه الحُسنى وصفاته العظيمة، وفي هذه الآية خمسة أسماء حسنى لله عزَّ وجلَّ وما يزيد على العشرين صفة تدل على كمال الرَّبِّ وعظمته وجلاله وجماله وكبريائه الذي عنت له الوجوه وخشعت له الأصوات ووجلت القلوب من خشيته، وذلَّت له الرقاب تبارك الله ربُّ العالمين، وكم في تدبُّر هذه الآية من النفع العظيم والخير العميم في الدنيا والآخرة.

وأقول هنا أين عقول أقوام يقرؤون هذه الآية مِن تدبُّرها وعقل ما دلَّت عليه ممن ابتُلوا بتعظيم القبور والعكوف عندها والخضوع لها والخشوع، وقدَّموا لها النذور وأراقوا عندها القرابين، وتوجهوا لها في طلب الحاجات، وعظموها تعظيماً لا يليق إلَّا بربِّ الأرض والسموات، ومَن ينظر إلى ممارساتهم عند القبور يرى أمراً عجباً، يقول ابن القيم ~ : «فلو رأيتَ غلاة المتخذين لها عيداً وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبَّلوا الأرض

وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتُهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنَّهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يُبدي ولا يُعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنَّهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر مَن صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر ركَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملأوا أكفَّهم خيبة وخسراناً، فلغير الله بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة أولي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام، أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنَّها لم تُعفَّر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن

إذ لم يكن لهم عند الله من خَلاق، وقرَّبوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتُهم ونسُكهم وقربانهم لغير الله ربِّ العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضاً ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظًّا، وإذا رجعوا سألهم غُلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثوابَ حجة القبر بحج المتخلف إلى بيت الله الحرام، فيقول: لا، ولو بحجِّك كلَّ عام!

هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم، إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال»[1].

فأين ذهبت عقول هؤلاء التائهين الضالين، ويا لله العجب! انصرفوا إلى عبادة وتعظيم عباد أمثالهم وتركوا عبادة الربِّ العظيم، والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢١٣).

أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[(١)]، وسبحان الله عما يصفون وتعالى عما يشركون.

فهذه دعوة لهؤلاء وغيرهم إلى تدبُّر هذه الآية الكريمة وتأمل دلالاتها العظيمة، ومن ثَمَّ تحقيق ما دلَّت عليه من الإخلاص والتوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد ببراهينها الواضحات وحججها الجليَّات.

اللَّهمَّ وفِّقنا لهُداك واجعل عملنا في رضاك وارزقنا الإخلاص في القول والعمل، إنَّك سميع الدعاء، وأنت أهل الرجاء وأنت حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وآله وصحبه.



(١) الأعراف، آية ١٩٤.